# **1/- المجتمعات الإسلامية:**

دراسة المجتمعات العربية الإسلامية خلال العصر العباسي من الموضوعات الهامة التي تكشف عن مستوى الرقي الذي وصلته الحضارة الإسلامية، ومازال يحتاج إلى كثير من الاهتمام والدراسة، وتتنوع مستويات هذه مجتمعات من زمن لآخر ومن منطقة لأخرى لذلك سوف نحاول إعطاء ما هو عام ومشترك فيما بينها، وسوف نحاول الوقوف على المظاهر الاجتماعية التي اشتهرت في الحضارة الإسلامية.

## **أ/- التراتبية الاجتماعية في العصور الإسلامية:**

نقصد بالتراتبية وجود طبقة الخاصة وطبقة العامة في تلك المجتمعات لذلك سوف نقوم بتتبع هذه الثنائية انطلاقا من العصر النبوي:

**العصر النبوي والراشدي:** فرض واقع المجتمع الجديد في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ومرحلته الأولى ضرورة قيادة الصحابة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم للفتوحات وكان الرعية هم الجند، فقد ورد في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "الدين نصيحة قلنا لمن؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" يكشف هذا الحديث بوضوح هذا الترتيب:

**الله**

**الكتــــــــاب**

**الرســــــــــــول**

**أئـــــــــمة المسلـــــــــــمين**

**عامــــــــتهم**

أثمة المسلمين هم كبار القادة والصحابة وسوف يصبحون فيما بعد أهل الحل والعقد، والرعية عامتهم، ويتجسد ذلك بشكل واضح في عهد عمر بن الخطاب حين فرض العطاء حسب السابقية في دخول الإسلام ومن شهد بد وهاجر قبل فتح مكة وهكذا وعند انقضاء ما تعلق بذلك تم تقديم أهل الشجاعة والبلاء في الجهاد.

إن هذه المسألة لا تحتمل أكثر من المقصود منها، فلا يمكن تصور أن هناك فوقية في المجتمع الإسلامي الناشئ وإنما المسلمون متساوون كأسنان المشط فلا فرق بينهم من حيث الجنس واللون والثروة والجاه والمكانة، فلا حواجز متحجرة بين القمة والقاعدة.

**العصر الأموي:** انقلبت الأمور في العهد الأموي منذ عهد معاوية وعلى امتداد الدولة الأموية بكل مراحلها، فقد تحولت الخلافة إلى ملك وعبر عنها ابن خلدون بقوله: "وإنما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ويجبي الأموال ويبعث البعوث ويحمي الثغور ولا يكون فوق يده يد قاهرة"، اعتمادا على عدة روايات وردت في المصادر نجد أن عدة مفاهيم مرتبطة بالجاهلية قد عادت مع العصر الأموي منها: السيادة والشرف والسن؛ أما السيادة فهي منزلة ودرجة لا تتأتى لأحد إلا باعتراف قومه له بسيادته وبتنصيبهم له سيدا عليهم، والسيد هو من فات غيره بالعقل والمال والنفع والدم، فالسادات هم الرؤوس ومن دونهم أذناب، وأما الشرف فهم الذين نالوا الشرف والسؤدد بين قومهم فسادوا، وللسن اهمية كبيرة عند العرب، فالإنسان إذا تقدم في السن ازدادت حكمته وتجاربه في الحياة فرجح عقله، ويعبر عنهم بالأسنان، والكابر والأشراف. وقد أضيفت مفاهيم جديدة مرتبطة ببنية المجتمع الإسلامي مثل: الموالي، اهل البأس والنجدة، وأهل الفقه والسنة.

ونظرا لاتساع رقعة الدولة الإسلامية وملامح التغيير في البنية الاجتماعية ظهرت نتائج على مستوى الأفراد والجماعات غذت بشكل كبير النعرات القبلية وأحيت العصبية القبلية، تمخضت عنها مصطلحات مثل: قيسي/يمني، عربي/أعجمي، ونظرا للانقسام الواضح بين العرب ومن انضم إليه من غير المسلمين طلبا للولاء فقد تكرست الطبقية بشكل واسع بين العرب والموالي، على الرغم من أن لحمة الولاء مثل لحمة النسب.

ونظرا لكون الدولة الأموية دولة فتوحات فقد سمحت لأولي الصفة العسكرية بالظهور واكتساب المال والجاه، ومن ثمة السلطة خاصة بعد أن أصبحت الدولة تعتمد على أجهزة إدارية أحدق الانفصال بين طبقة الخاصة ممثلة في السلطة أو الطبقة الحاكمة وطبقة العامة ممثلة في الرعية أو الطبقة المحكومة. لكن مع تجاوزات السلطة الأموية ظهرت عدة ثورات أطرها في الغالب علماء وأئمة وأهل فقه وسنة، فانبثقت بذلك طبقة نخبوية معارضة اكتسبت سلطتها من الولاء الروحي والديني للعامة.

ومنه نقول أن:

**في العصر الراشدي ----------------- في العصر الأموي**

**العلماء هم الأمراء ------------------ الأمراء طبقة والعلماء طبقة**

**الرعية هم الجند ------------------- الجند طبقة والرعية طبقة**

**العصر العباسي:** لم يخل العصر العباسي هو الآخر من تغيرات في التراتبية الاجتماعية لكن هذه المرة حسب الصبغة الفارسية، فالحظوة التي مني بها الفرس في ظل العصر العباسي الأول جعلتهم يكرسون فكرة ضرورة التمايز بين طبقات المجتمع، فابن المقفع أشار إلى ضرورة تغيير لباس المعاملة بين طبقة العامة التي يلبس لها لباس تحفظ وانقباض وانحجاز وطبقة من الخاصة يخلع عندهم التشدد ويلبس لباس الألفة واللطفة والأنسة، وقد جسد الجاحظ ذلك أيضا بمحاولة تطبيق النموذج الفارسي في تسيير الملك من خلال كتابه "التاج في أخلاق الملوك".

يمكن القول أن طبقة الكتاب خاصة ممن تركوا لنا إنتاج أدبيا في مجالهم هم الذين روجوا وحاولوا تكريس النموذج الكسروي في التمييز بين طبقات المجتمع، نستشهد هنا بمقال ذكره الماوردي في نصيحته الخامسة للملوك في سياسة العامة فعلى الملك: " أن يعرف طبقات الناس ومراتبهم من أبناء الملوك وأشراف وذوي الأحساب والأنساب وأولادهم والعلماء والنساك وذويهم وأرباب الصناع والأرضين والتجار والصناع والمهنة وأصحاب الأقدار منهم ويرتبهم مراتبهم وينزلهم منازلهم"

## **ب/- عوامل تكوين المجتمع الإسلامي:**

اعتمد الرسول صلى الله عليه وسلم على عدة أسس وتظافرت عوامل لتأسيس المجتمع الجديد نذكر منها:

**1/- الإيمان بوحدانية الله سبحانه وتعالى:** كان للعقيدة الإسلامية التي تقوم على مطلق العبودية لله أثر واضح على اجتماع قلوب الناس بعد أن كانت أذهانهم وأفهامهم مشتتة بين عبادة الأوثان والولاء القاصر للقبيلة أو السعي وراء تحقيق المصالح الخاصة، في حين ساهم هذا الإيمان المطلق في اجتماع اهتمام الإنسان وتوحيد قبلته وتحديد أفكاره ومشاعره وأهدافه، وذلك هو الأثر البنائي للتوحيد، الذي حدد معالم شخصية الإنسان وجهزه لتأسيس مجتمع جديد.

**2/- التضامن:** أسس الرسول صلى الله عليه وسلم مجتمع المدينة بعد الهجرة على أساس من المحبة والألفة والصفاء والود وحتى الإيثار وتفضيل الآخرين على الذات، كان لذلك الأثر المحسوس في سرعة الامتزاج والاندماج بين الأفراد في المجتمع الواحد من خلال القضاء على الفوارق الاجتماعية وإزالة الحواجز النفسية والموانع العصبية؛ وقد برز هذا التضامن في حديثه صلى الله عليه وسلم: "مثل المسلمين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الأعضاء بالسهر في الحمى". إن هذا التضامن جعل من الفرد لا يفكر من منطلق ذاته وإنما يعمل بروح الجماعة ويهدف إلى تحقيق مصلحتها.

أفرز مبدأ التضامن ثلاث صور طبعت المجتمع الإسلامي في نشأته واستمرت بعضها في المجتمعات اللاحقة: التكافل الاجتماعي/ الآداب الأخلاقية والسلوكية/ الشورى بين أفراد المجتمع

**3/- تقبل الآخر في المجتمع الإسلامي:** نقصد هنا كل من كان له دين غير الدين الإسلامي من الكافرين والوثنيين وأهل الذمة من اليهود والنصارى، وقد بني المجتمع الأول وهو يضم عناصر منهم، وحتى لا يحدث تشتت فيه قامت معاملتهم على مبدأ التسامح ودفع الجزية واحترام الطرفين للشعائر الدينية للطرف الآخر.

## **ج/- تطور بنية المجتمعات الإسلامية:**

حافظ المجتمع الراشدي على بنيته التي رسخها الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال تحقيق المساواة بين الناس وعدم إعطاء حظوة لأهل الجاه والنسب، والمعروف أن البساطة التي اصطبغ بها ناتجة عن محدودية الموارد المادية لأفراده؛ غير أن هذا الأمر أخذ في التغير مع الفتوحات والحصول على الغنائم واكتساب الأراضي والديار وازدياد مداخيل الدولة عموما وتعدد مصادر الكسب للمشاركين في الفتوحات؛ سوف ينعكس هذا الوضع على وسائل المعيشة وطرقها، وعلى ظهور فئة من الأغنياء وملاك الأراضي والتجار والتي بدورها ستؤدي إلى تطورات في بنية المجتمعات في العصور اللاحقة.

وعلى العموم فقد كانت بنية المجتمع العربي الإسلامي تتكون من عدة أطراف أهمها:

* كبار رجال الدولة وكان منهم الخلفاء ويمثلون قمة الهرم الاجتماعي، والأمراء وهم النواب عنهم في إماراتهم ويتمتعون بمكانة كبيرة فيها، والوزراء والكتاب والقضاة وأصحاب الوظائف الرئيسية والمناصب الكبرى، يمثلون الجهاز الإداري للدولة ويعملون على بناء المرافق وتنظيم الحياة العامة؛ عرفوا ببناء القصور العظيمة وتجهيزها بفاخر الأثاث.
* العلماء والأدباء، وهي طبقة مرموقة في المجتمع وذات هيبة وقيمة روحية نظرا لاتجاه الناس نحوها في أمور دينهم، كما أن الأدباء كثيرا ما يتقربون من السلطان ويؤثرون في بلاطه، وقد اكسبهم ذلك في بعض الأحيان نفوذا لدى رجال الدولة،
* الجند وكانوا يتميزون بلباسهم وزيهم، ولهم ديوانهم الخاص الذي يدون أوصافهم وأعمالهم وأرزاقهم.
* رجال الأعمال كأصحاب الأراضي والملاك والصناع والتجار، ويختلفون من حيث ثرائهم، ويتميزون بطرق معيشتهم وملابسهم الخاصة، يمثلون ارستقراطية المال في الدولة الإسلامية زمن ازدهار حضارتها وانتعاش اقتصادياتها، وتزداد رفعة التاجر كلما كانت سلعه ثمينة مثل الرقيق والمجوهرات وعلى إثر ذلك يتقربون من الخلفاء وأصحاب السلطة ويحصلون على مكانة مرموقة لديهم.
* طبقة العامة تضم في تكوينها الصناع والحرفيين والزراع والفئات الدنيا من المجتمع كأصحاب المهن الوضعية في نظر المجتمع آنذاك كالسقائين وباعة الدقيق والسماكين والنخاسين والدباغين والحمالين وغيرهم كثير كاللصوص وقطاع الطرق والعيارين والشطار، تميزت هذه الطبقة بالفقر والفاقة والحاجة الملحة، تميز أغلبهم بالعمل الدؤوب وتوفير حاجيات المجتمع من مأكولات ومصنوعات ومبيعات وغيرها، وقد عرف المزارعون بسكنى القرى والأرياف اشتغلوا بفلاحة الأرض الخاصة بهم أو التابعة لفئة الملاك. وتعتمد فئات اللصوص وقطاع الطرق والعيارون والشطار على السلب والنهب وقطع الطرق للحصول على حاجياتهم المادية والاجتماعية، تعنبر فئة العامة صاحبة الدور الكبير في حركية المجتمع، والعدد الأكبر مقارنة بباقي الأطراف.
* أهل الذمة وهم اليهود والنصارى ممن يعيشون في المجتمع الإسلامي وتحت كنف الدولة الإسلامية ووفقا لتشريعاتها، ويدفعون مقابل ذلك مقدارا من المال يسمى الجزية لحمايتهم وتأمينهم على أرواحهم. وقد مارسوا شعائرهم بحرية تامة، ولم يمنعهم دينهم من تولي مناصب عليا في الدولة، كما مارسوا مهنا وحرفا هامة مثل الطب والصياغة الصيرفة.
* العبيد والجواري: يوجد أكثر من مصدر للرقيق منها أسرى الحرب، وما يؤخذ سلبا ونهبا كما كان النخاسون اليهود يفعلون، وطريق الشراء، وعلى العموم كانت هناك ثلاث طرق وهي: أولها ملك اليمين، وثانيه نصيب من قسمة الغنائم، وثالثها شراء وهبة.

وكان نظام الرقيق موجود منذ العصور المختلفة، وأباحته الحضارات والدول القديمة وقننت له، ومن ثم فقد كانت تجارته واسعة. وفي المجتمع الاسلامي لم يلغ الرق بصفة نهائية، وإنما أدخل على نظامه وتعديلات من شأنها إلغاء الرق على المدى الطويل لذلك لم يقنن الإسلام لشراء وبيع الرقيق وإنما شرع وقنن للعتق حيث أن القرآن يدعو إلى ذلك: "فَلَا اقْتَحَمَ العَقَبَة ومَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَة فَكًّ رَقَبَة" (البلد 11-12-13)، والرق يتصل بالعمل الجسماني فقط ولا صلة له بالعقل والفكر.

## **د/- الأعياد والاحتفالات:**

تعد الأعياد والاحتفالات مظهرا اجتماعيا تسعى لإحيائه كل الشعوب وعلى مر العصور، وهو تعبير عن الخصوصية الاجتماعية والاعتقادات الدينية والتأثيرات الخارجية، ويختلف وفقا لهذه العوامل حسب كل مجتمع ومجاله وهويته، لهذا الأمر نجد أن المسلمين اختلفت أعيادهم الدينية عن غيرهم وتأثروا بأعياد غيرهم من الشعوب التي دخلت الإسلام، نذكر من بينها:

**1/- الأعياد الدينية:**

**عيد المولد النبوي:** لم تتحدث المصادر عن إحياء هذا العيد في عهد الخلفاء الراشدين، وغنما برز في العهدين العباسي والفاطمي، ويمكن تأريخ بداية الاحتفالات بهذه العيد سنة 300ه بقراءة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والاستفاضة في حادثة الإسراء والمعراج، وقد أشار المقريزي إلى أن الاحتفال في مصر يبدأ بعد صلاة الظهر حيق توزع الحلويات والصدقات، ويخرج قاضي القضاة بصحة الشهود العدول إلى جامع الأزهر لسماع القرآن بعدها يعود للقصر في حضور العامة لمشاهدة الموكب.

الاحتفال بشهر رمضان: احتفالا بحلول رمضان يوزع الخليفة الخلع على العلماء والفقهاء ورجال الدولة وقوادها وكبار كتابها، وتنصب موائد الإفطار في دار الخلافة للخاصة والعامة، وتنار الليالي بالمصابيح طيلة الشهر الكريم.

عيدي الفطر والأضحى: يمثلان أهم الأعياد نظرا لارتباطهما بركنين أساسيين من أركان الإسلام وهما الصيام والحج، ويحتفل بهما المسلمون قاطبة على اختلاف أجناسهم وبلدانهم، يتوافد فيهما الناس على المساجد الجامعة لآداء صلاة العيد، ويستقبل الخليفة رجال دولته والشعراء للسماع لقصائدهم، وتوزع فيه الحلوى وتقرع الطبول، ويظهر الناس بأفخر الثياب؛ ويذكر ابن بطوطة في رحلته أن اهل مكة يوقدون المشاعل ليلة استهلاله، ويسرجون المصابيح والشمع وتوقد السرج في الصوامع من جميع جهاتها، ويوقد سطح الحرم كله, أما في عيد الأضحى فلا يختلف عن عيد الفطر إلا في ذبح الأضحية.

عيد عاشوراء: يحتفل المشارقة بعيد عاشوراء بالصوم والملابس الجديدة وإقامة الولائم فرحا بنجاة موسى من فرعون، لكن الشيعة ينوحون ويبكون أسفا لمقتل الحسين.

**الاحتفالات السلطانية:** يحتفلون بالتولية بعد وفاة السلطان السابق أو نفيه أو خلعه، ويعتبر من أهم الاحتفالات التي تبرز هيبة الدولة، وتتم عقد البيعة بحضور رجال الدولة، حيق يركب الخليفة الجديد السناجق باتجاه قر الخلافة وعلى رأسه القبة والطير.

كما يحتفلون بالترقية وذلك عند حصول الترقية في الوظائف والمناصب العليا، وقد أخذت أهمية في عهد دولة المماليك حين يعتق المملوك ويترقى إلى جندي ثم يتدرج في الوظائف العسكرية.

وتقام الاحتفالات عند عودة السلطة بانتصارات حربية، فيحتشد العامة للقاء السلطان، وتضرب الطبول، وترتفع الأصوات مهللة بالنصر والدعاء له.

**2/-الاحتفالات الاجتماعية:**

**الزواج:** كان العرب يفضلون الزواج من القرشيات، وإن لم يتحقق فمن العربيات، ويعملون على حسن اختيارها حتى يحصل المجد لأبنائهم، فقد قال عثمان بن أبي العاص الثقفي: "إني قد أمجدتكم في أمهاتكم، وأحسنت في مهنة أموالكم"، وقد اعطيت المرأة الحق في اختيار زوجها، وعرف العرب التعدد قبل الإسلام لكنه حدد بأربع في ظله، وللمرأة الحق في الزواج بعد وفاة زوجها أو طلاقها منه. وقد تزوج الخلفاء من الحرائر كما تزوجوا من الجواري بعد عتقهم، وهذا ما يفسر أن أغلب أمهات الخلفاء منهم إلا البعض منهم مثل أبو العباس والمهدي والأمين.

أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم نساءه 400 درهم كمهر، وقدم علي لفاطمة 500 درهم، وعند غلاء الأمور في العصر الأموي حددها عبد الملك بن مروان ب 400 درهم اقتداءً بالرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد كانت تقام الأفراح في بيت العريسين ويجتمع أهلهما في بيت العروس في يوم الأملاك وهو يوم العقد، أم يوم النقيعة فيلعب الفتيان بالرماح، ويتسابقون على الخيل، ويتم في بيت العريس، وتقدم الأطعمة والأشربة، وتلبس العروس الحلي وتقام مجالس الغناء والرقص.

ارتبطت الاحتفالات المصاحبة لمناسبات الزواج بالمستوى المادي والاجتماعي، لذلك اتخذت أفراح الخلفاء وذويهم أبهة جعلت أصحاب المصادر يتناقلونها عبر العصور مثل: زواج هارون الرشيد من زبيدة الذي حضر فيه ثلاثون لونا من الطعام وكانت كلفة الحفل خمسون ألف ألف درهم، وزواج المأمون من بنت الحسن بن سهل الذي انفق فيه ثلاثون ألف ألف درهم.

وأقيمت حفلات الختان والولادة وعرفت مظاهر من توزيع النقود والكسوات على الفقراء خاصة إذا تعلقت بأولاد الخلفاء، وتأتي الأهل إلى بيت المولود مع إعلاء الزغاريد وصنع الطعام واستقبال الضيوف.

وفي ظل التسامح الديني وحفظ حقوق أهل الذمة في البلاد الإسلامية فقد كانت لهم الحرية في ممارسة أعيادهم الدينية مثل: عيد الشارة (مرتبط بالشارة الذي جاء بها جبريل عليه السلام)، وعيد الزيتونة أو الشعانين (مرتبط بدخول المسيح إلى القدس ثم دخوله للهيكل)، عيد الفصح (ويحتفل فيه النصارى بذكرى قيام المسيح من قبره واجتماعه بحوارييه).

أما عن عيد النيروز أو النوروز فيذكر أنه يصادف أو أيام السنة الشمسية أي في 21 آذار/مارس من السنة الرومية، وهو يوافق رأس السنة الفارسية او القبطية، ويكون ذلك بدخول فصل الحر، ومن طقوسه استقبال السنة الجديدة وافتتاح الخراج، وتولية العمال وضرب السكة، ويتلقى الخليفة الكثير من الهدايا من العامة والخاصة خاصة من مصنوعاتهم، وما ينسجونه من ألبسة أو ما بحوزتهم من خيل...، وغيرها من الأعياد المشابهة واعيد اليهود وأعياد الموروثة عن الأقدمين.

## **ه/- الأزياء والألبسة:**

الأزياء الرسمية: وهي الخاصة بالخلفاء والأمراء والحكام، فالخليفة سليمان بن عبد الملك (96-99ه/715-718م) أدخل الثياب الحريرية المثقلة بالذهب، وأدخل هشام ين عبد الملك (105-125ه/724-743م) زي الخز أي الزي الناعم، وأوجد الخليفة المتوكل على العباسي (222-247ه/837-861م)، زيا عرف بالتوكلية، كما أوجد سلاطين المماليك عمائم خاصة، وقام زرياب أبو الحسن بن نافع المغني المشهور (ت242ه/857م) باختراع بعض الأزياء وحث الناس على تغيير الملابس لتكون مناسبة لفصول السنة فالبياض مناسب للصيف، والمبطن للشتاء، والملون للربيع والخريف.

الأزياء العامة: وهي لكل الناس كالردا، المعطف، والقمبص والنقاب، والقفطان والأزرار، والكوفية والسترة، والعباءة والجبة.